المحاضرة رقم 7: التفكير المنطقي عند المراهق

تمهيد:

شكل التفكير المنطقي محور اهتمام الفلاسفة منذ أرسطو الذي تحدث عن logos التي تعني اللغة و التفكير، الى ديكارت (القرن 17م)، الذي قال بأن الانسان لا بد له أن يتعلم توجيه و إعادة توجيه روحه و أخطاء تفكيره الى التفكير المنطقي، إلى بياجيه الذي حدد عمر 12 الى 16 سنة أين يستطيع المراهق اكتساب التفكير المنطقي أو الشكلي و قد سماه بالتفكير الافتراضي الاستنتاجي (la pensée hypothético- déductive) و هو آخر مرحلة من مراحل نمو الذكاء في نظريته.

1-التفكير الافتراضي الاستنتاجي (المنطقي) عند بياجيه:

يستعمل الفرد منا التفكير الافتراضي الاستنتاجي عندما يفكر عبر قوله: "إذا...إذن/ Si…Alors". تعني "إذا" وضع الفرضية و "إذن" النتيجة و الاستنتاج، مثل قول: "إذا قرأت كتاب بياجيه بداية من فصوله الأولى إذن لاستطعت فهمه بشكل جيد". حسب بياجيه فان المنطق هو الشكل النهائي للتكيف الفردي و الذي يتم الوصول اليه عبر عدة مراحل منذ الولادة الى المراهقة أي عبر مرحلة التكيفات الحسية و الحركية الى مرحلة التكيفات المعرفية الملموسة ثم مرحلة المعرفية الشكلية المعنوية. من أجل تمييز هذه المرحلة الأخيرة عن سابقيها فسرها بياجيه عبر قوله: "ان فكر الطفل يحدث له نوع من الانفصال اتجاه المواضيع un décrochage de la pensée par rapport aux objets"، فمنذ مراحل المعالجة الكمية للمواضيع (إدراك العدد) و المعالجة النوعية (التصنيف) التي قام بها الطفل مع المواضيع الملموسة (جمى، زهور، قطع حلوى و غيرها) يعود و يقوم بنفس هذه المعالجة لكن مع الأفكار و الافتراضات المنطقية و الفرضيات و هذا هو التفكير بأتم معناه حسبه.

2- التفكير المنطقي بعد بياجيه:

ظهرت عدة أبحاث و نظريات خلال سنوات 70 و 80 و 90 و التي نشرت حول موضوع التفكير المعرفي عند الطفل و المراهق و قد انقسمت في محملها الى اتجاهين، الأول يقول بما قاله بياجيه حول وجود تفكير منطقي و الاتجاه الثاني الذي قال بعدم وجوده. يعتبر Martin Braine أحد ممثلي الاتجاه الأول و حسبه فانه يوجد داخل دماغ الانسان تفكير منطقي عالمي و هو محدد بمجموعة الوظائف الذهنية، وظيفة هذا التفكير هو تسهيل التفاعلات اللفظية الكلامية بفضل قواعد معينة مكتسبة خلال مراحل الطفولة. يعتبر رأي Braine مماثل لرأي بياجيه إلا أنه مرتبط بالكلام و اللغة أما بيايجيه فهو مرتبط بالحركة و الفعل.

أما أصحاب الاتجاه الثاني فيوجد منهم Phillipe Jonhson Laird الذي يقول بأن التفكير المنطقي غير موجود، حسبه فان كل تفكيرنا يمكن تفسيره ليس عن طريق استعمال القواعد اللغوية و المنطقية و إنما هو عبارة عن مشاهد مسرحية يؤدي أدوارها معطيات المشاكل في مسرح عقلي داخلي سماه Laird بالنموذج العقلي le modèle mentale و هنا التفكير يتم بالاعتماد على التخيل البصري الفضائي.

أثبتت معطيات دراسات حديثة باستعمال التصوير الدماغي للتفكير تفوق نظرية Braine (أصحاب الاتجاه الأول) و التي مفاذها أن التفكير يحدث نتيجة تحفيز مساحات دماغية، إلا أنها مساحات لغوية منطقية (جبهية صدغية) و ليس كما قال Braine على أنها مساحات بصرية فضائية (مساحات قفوية سطحية) و عليه فكلا وجهتي النظر صحيحة عند بياجيه و Braine.

3-أخطاء التفكير:

ظهر تيار جديد بعد بياجيه تحت قيادة Jonhson Evans عكس بياجيه يرى أن المراهقين و الراشدين (المنطقيين عند بياجيه) يقومون بأخطاء تقديرية و استنتاجية تسمى بأخطاء التفكير ( و هذا ما قاله أيضا ديكارت). تعتبر هذه الأخطاء عبارة عن انتكاسات أو فشل مقارنة مع المنطق الشكلي و التي لم يتطرق اليها بياجيه و هذا لا يعني أنه لا يوجد تفكير منطقي و إنما يعني أن الدماغ البشري قد يستعمل المنطق و قد لا يستعمله. يعرف Evans أخطاء التفكير على أنها ميول آلية الى الأخذ بالعوامل الغير مرتبطة بدقة بالمشكل و اهمال العوامل المرتبطة به. قام الباحثون في بداية 2000 بدراسات كثيرة حاولوا من خلالها الاجابة عن هذه التساؤلات بالاستعانة بعمل الدماغ و هي: هل نحن نفكر بمنطقية؟ لماذا نرتكب أخطاء التفكير؟ و هل للعاطفة دور في التفكير؟

من وجهة نظر عصبية معرفية و حسب Houdé Olivier يوجد استراتيجيتين (طريقتين) في التفكير و هما تتحدان في وظيفة واحدة و هي ذاكرة العمل La mémoire du travaille، الاستراتيجية الأولى إدراكية ناتجة عن التعلم و الثانية منطقية و عليه فان المراهق أو الراشد يفشل في كبح الاستراتيجية الادراكية بدون أن يعني ذلك وجود خطأ معرفي منطقي و منه تفادي الحكم على أن أخطاء التفكير الموجودة عند الراشد و المراهق هي عبارة عن غياب المنطق (عكس ما قاله بياجيه).

لا يكفي بلوغ المراهقة وحدها (مرحلة العمليات الشكلية) من أجل أن يصبح الفرد منطقيا في تقكيره، لأن الدراسات أثبتت أن الدماغ يستعمل عدة استراتيجيات تفكير و أهمها الاستجابات الادراكية (أخطاء التفكير و التحيزات الفكرية) التي تتنافس مع الاستراتيجيات المنطقية، كما أن الكف المعرفي الناتج عن التعلم هو مفتاح الولوج الى التفكير المنطقي.

4- دور العاطفة في التفكير:

أثبتت الدراسات العصبية المعرفية (دراسات Antonio Damasio بجامعة كاليفورنيا) أن التفكير الذي يحدث عن طريق التعلم بالكف الادراكي و التحيز المعرفي (أخطاء التفكير) يقوم بتحفيز منطقة دماغية تقع على مستوى النصف الدماغي الأيمن في مقدمة الفص القبل جبهي و هي منطقة قريبة من الجهاز اللمفاوي (جهاز العواطف)، هي نفسها المنطقة التي تحفز لدى الأشخاص الذين ينتقلون الى التفكير المنطقي بعد تعلم الكف الادراكي و هي لا تحفز أو لا توجد أصلا لدى الأشخاص الذين لا ينتقلون الى التفكير المنطقي (يبقون دائما في أخطاءالتفكير). ترتبط العاطفة بمشاعر الذات خلال النشاط المعرفي و هذا ما سماه Théodule Ribot في 1986 بالشعور المعرفي le sentiment intellectuel. يحدث الشعور المعرفي حسبه عن طريق اعتقاد الفرد أنه محق في أثناء قيامه بمهمة ما (أي عدم وعيه أنه يرتكب خطأ) قبل التعلم بالكف للتحيز الفكري ثم يعي خطأه بعد التعلم بالكف، هذه الظاهرة المرتبطة بالوعي بالخطا و المرتبطة كذلك بلذة إكتشاف الحل هي أساس التطور المعرفي بشكل عام عند الرضيع و الطفل و المراهق و الراشد و هي أساسية في التربية و التعليم. أثبتت نتائج الدراسات باستعمال التصوير الدماغي أن للعاطفة دور في التفكير عكس ما قال به ديكارت و بياجيه حول ضرورة الفصل بين الفكر و العاطفة (خطأ ديكارت في نظرية Dmasio).

خلاصة:

يمكننا أن نستخلص أن التفكير المنطقي عند المراهق و الراشد مرحلة أساسية في نموه المعرفي حيث ينتقل من التفكير الملموس الى التفكير المجرد. تناولنا في هذه المحاضرة تعريف التفكير المنطقي و محدداته حسب بياجيه و مساهمات الباحثين الذين جاءوا من بعده. إن فهمنا لهذه المقاربات يتيح لنل كأخصائين نفسانيين تهيئة بيئات داعمة تعزز من قدرات التفكير المنطقي لدى المراهقين سواء عبر التعليم أو التوجيه الأسري، مما يسهم في اعدادهم لمواجهة تحديات الحياة باتزان نفسيو فكري.